الحياء في الدين والسياسة والفن

في العقيدة والأخلاق

أعتقد أن ليس هناك أقبح، وأشر، وأحط ثقافة من تلك التي لا يعرف أهلها فضيلة الحياء، ويجعلونها ديدنهم ودستور حياتهم وميثاق سلوكهم والقانون الضابط لأقوالهم وأفكارهم و إبدعاتهم. ولا أكون مبالغا أو متشائما عندما أقرر أن مثل هذه الثقافة لا يرجى منها خيرا ولا يؤمل من أفرادها النجاح والفلاح ولا ينُتظر من مؤسساتها أدنى درجات الاستجابة لخطب الوعظ وترانيم التقوى وخطط الإصلاح وآليات محاربة الفساد والتطرف والعنف. والحياء الذي نفتقده وننشده لا يعني الخضوع والانصياع والطاعة العمياء لأوامر أو عادات وتقاليد وثوابت موروثة بحجة أنها الأيقونة المقدسة والقول الفصل والحكمة الخالدة التي خلفها لنا التراث العقدي والاجتماعي والسياسي. فإن ذلك نقيض المراد، فالحياء لا يمنع العالم العاقل والباحث المدقق من إعمال العقل في كل ما يتلقاه، أما تطاول الجاهل وبذاءة الأحمق وتمرد الهمجي فهو من الرذائل التي تناقض الحياء.

و إذا ما حاولنا الوقوف على مفهوم الحياء فسوف ندرك إن معنى اللفظة يعبر عن الخجل من القول أو السلوك السيء، والاحتشام والوقار الذي يتوج السرائر النقية والطبائع الخيرة، وهو أصل العديد من المكارم والخصال

الحميدة مثل العفة والتسامح والورع، وهو مصاحب للنفس اللوامة التي تنأى بالفرد عن الشروع في ارتكاب المعاصي، وهو الصوت المكين الذي ينهى النفس الأمارة بالسوء عن الظهور في مظهر لا يستحسنه الشرع والعقل والذوق معًا. فالحياء والبذاء نقيدان لا يجتمعان في قول أو فعل أو مظهر.

ويميز أبوالهلال العسكري بين الخجل والحياء، فالأول هو أسف وندم عما كان، أما الثاني فهو مانع ورادع داخلي عن ارتكاب السوء قبل وقوعه. واختلف العلماء فيما بينهم حول طبيعة الحياء من حيث هو خلق فطري أو مكتسب، والمرجح عندهم أن الفطرة السليمة تعزف عن ارتكاب الشرور والعيوب، أما الحياء فيكتسب بالتربية والتوجيه وذلك لتخلية النفس من الوقاحة والخضوع للشهوات وتعويد الذوق على استحسان المكارم من الفضائل وبغض المكاره في القول والعمل.

وقد ورد مصطلح الاستحياء في القرآن ولم تخرج دلالاته الأخلاقية والمعرفية عما أوردنا، وما يؤكد أنه لا حياء ولا استحياء في القول بالحق ودفع الظلم والانتصار إلى العفة والذود عن الكرامة.

أما الحياء في الحديث الشريف فقد جاء معبرًا عن أعظم الفضائل شأنا ألا وهي فضيلة الإيمان بوجود الله الحي الذي لا يخفى عليه شيء؛ ومن ثم يكره عز وجل أن يرى عباده في مخبر أو مظهر لا حسن فيه ولا طاعة. لذا جعل النبي ﷺ الحياء والإيمان صنوين لا يفترقين، وبيّن أن خلق الإسلام الحياء. ولا يأتي الحياء إلا بخير. وأوضح أن أعلى درجات الحياء هي الاستحياء من الله ولا يبلغها إلا من اتقى البارئ فيما يعقل ويشتهي، فيرغب عن هوى الدنيا حتى لا ينسى الموت والحساب واللقى.

والحياء عند الصوفية هو النور الجامع بين الإيمان واليقين، والهيبة والاحتشام، والحذر من الذم وترك المعاصي طواعية، واستحياء العبد في طلب نعمة من الله لا يستحقها، في سياق واحد. ويقسم جعفر الصادق الحياء إلى خمسة شعب (حياء ذنب، وتقصير، وكرامة، وحب، وهيبة). أما أبو الحسن الماوردي فقد جعل الحياء في ثلاثة أوجه الحياء من الله والناس والنفس، فمن لم يدركها لن يسلم من البذاء والقبح والشر. والحياء عند الغزالي هو الفزع من النقيصة. والحياء عند ابن عربي لا يتعارض مع طلب العلم والتأكد من بلوغ الحقيقة.

وعليه لا يمكننا تصور الإيمان والورع والتدين والوقوف على منبر الدعوى والجهاد للذود عن أصول العقيدة وارتداء عباءة العلماء والصالحين في النقد والتقويم، بمعزل عن فضيلة الحياء. والعجب كل العجب أن نجد في أيامنا هذه من يجلسون على أريكة العلم الشرعي ويأمرون بالمنكر، فيكفّرون ويرمون الناس بالباطل ويسبون خصومهم ويحرضون على قتلهم ويفتون بالهوى ويجيزون ما حرم الله ويحللون ما نهى عنه.

ولسنا في حاجة - بطبيعة الحال - إلى ضرب الأمثلة أو الاستشهاد بواقعات، فما أكثر فتاوى الجهال وافتراءات المتأسلمين وإفك الخوارج المعاصرين من أرباب الجماعات وفحش من استباحوا قتل المسلمين واغتيال الآمنين من الأغيار وسلب أموالهم وأعراضهم؛ كل ذلك دون حياء أو استحياء، بل يخرجون على الناس بوجوه قبيحة وعيون متبجحة ويذكرون اسم الله، تارة باسم إحياء الخلافة وأخرى باسم الجهاد فشوهوا الدين واقتلعوا قيامه من جذورها؛ الأمر الذي أطاح تماما بفضيلة الحياء التي جعلها الله ورسوله من

أصول الشرع. ناهيك عن المخادعين والمنافقين الذين تمسكوا بالقشور دون اللباب فأطلقوا اللحى وارتدوا الخمار والنقاب وتتوجوا بالعمائم وتزينوا بالسبح، وذلك ليسترون سوء مخبرهم وخبث نواياهم وقبح فعالهم والحقد الدفين في صدورهم، وهم في ذلك كله يخشون الناس في الله ولم يستحوا في صلواتهم بين يدي البصير العليم من بذاءة مخبرهم ووقاحة معتقدهم.

وليس هناك أخطر على الأمة من تلك السفالة وذلك الانحطاط الذي أضحى ظاهرة لا يمكن إنكارها، وذلك إلى درجة أنه بات التدين والانضباط الخلقي والاحتشام في المظهر مرادف للإرهاب والخبث والتطرف العقدي والخيانة والعنف؛ وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال على الخطاب الدعوي الإسلامي، ومد الطاعنين في الدين - في الوقت نفسه - والمشككين في سلامة العقيدة والملاحدة بأدلة وبراهين، لا سبيل لدفعها إلا بإحياء فضيلة الحياء لثقافتنا ثانية. وقد صدق ﷺ بقوله **«إذا لم تستح فافعل ما شئت»**، وللحديث تأويلين ذكرهما الماوردي (972 - 1058م) في كتابه أدب الدنيا والدين: أولهما يعني أن ضياع الحياء والعزوف عنه تبجحا وعنتا وتطاولا واجتراء يضيع أصول العقيدة وخلق الدين، فلا يشفع التمسك بالفروع ضياع الأصول وجحد الثوابت؛ أما التأويل الثاني فهو يفسر على الإباحة من قبل الذين جُبلوا على الحياء - ورعًا وطمعًا في الشفاعة التي يُحرم منها من غفل عن معاتبة الله لعباده - وربوا أبناءهم على الاستحياء، فكل الأمور حسنة ما دامت لا تخدش الحياء ولا تتعلق بالبذاء، وذلك لأن الحياء هو الرادع النفسي والمانع الداخلي للقيام بأي أمر يناهض الأدب ويعادي الذوق الجميل. ولا ريب في أن الدلالتين مقبولتان إذا ما أعملنا العقل فيهما ومن ثم لا سبيل لنا إلا تفعيلهما في سرائرنا وحياتنا.

حياء الراعي واستحياء الرعية في التربية والسياسة

اتفق الأصوليون والفلاسفة على عدم الفصل في الإسلام بين النظر والعمل وأن الحق لا يضاد الحق، ومن ثم لا يجوز تناقض التعاليم الشرعية مع بعضها؛ وعليه فالفصل بين الأخلاق والسياسة لا يجيزه إلا من عجز عن فهم صحيح المنقول ولم يفطن إلى المقاصد الشرعية وما تحمله من قيم أخلاقية.

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان السياسة بشقيها (إدارة البيت المسلم بالدستور التربوي، وتدبير شئون الحكم وتسيير أمور الدولة بالسياسة الشرعية)، فسوف نقف بوضوح على ما ورد في كتابات الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة بداية من ابن المقفع إلى ابن تيمية، التي تقطع بأصالة الروابط النقلية والعقلية تلك التي تجمع بين القيم الأخلاقية والمبادئ السياسية بدربيها.

وعلى رأس هذه القيم فضيلة الحياء، فجعلت الرجل يستحي من أبويه فلا يغضبهما ويتفانى في خدمتهما، ويستحي من زوجته فيمسكها ويسرحها بمعروف وإحسان، ويعاشرها بالحب والإخلاص والرفق واللين، وينشئ أولاده على طاعة الله واجتناب المعاصي، وتؤجر الزوجة الصالحة على رعايتها لزوجها وأولادها. وتبدو فضيلة الحياء في تجنب الأبوين الظهور أمام أولادهما في مظهر أو مخبر يمكن وصفه بالبذاءة والقبح، وتشجيعهم في الوقت نفسه على الشجاعة في قول الحق والشهادة به والانتصار له وطلب العلم والالتزام بالحياء في المخاطبة والرجاء والدعاء وعند الإقرار بالذنب؛ ناهيك عن الاستحياء في الأخلاقيات العامة مثل احترام الكبير، والتحشم في

المظهر، وعدم الرقاعة والخلاعة والتبجح في الحديث، ومراعاة آداب النقاش والحوار والطلب والتقويم.

أما في أمور إدارة الدولة وشئون الحكم فنجد الحياء على رأس الخصال الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الحاكم والرعية، إذ يجب على الحاكم أن يستحي من الله ويخشاه في الناس - وقد أكد على ذلك جل فلاسفة السياسة في المشرق والمغرب - ، فيقيم العدل بينهم ويكرم ضعيفهم وفقيرهم ويعمل لما فيه صالحهم ويدفع عنهم كل أشكال الشرور والمضار ويحسن مخاطبتهم فيتجنب الكذب والخداع والغش والرياء والنفاق والمماألأة حتى لا يصيب معيته بالتجبر والتبجح ويضيع هيبته فيهم. ولا يستحي الحاكم من مصارحة الرعية بالأزمات والمخاطر التي تحيط بهم وذلك ليعينوه على التغلب عليها ولا يجبن عن معاقبة المتجبرين والفاسدين ولا الغزاة المعتدين، الأمر الذي ينمي روح الانتماء والولاء والشعور بالطمأنينة والثقة في نفوس الرعية في حاكمها وقائدها. أما الحياء الذي يجب أن يتسم به سلوك الرعية هو الابتعاد عن كل صور الرذيلة والقبح في القول والسلوك فيقدم التسامح على العنف في معاملاتهم وتغليب المصلحة العامة على منافعهم الشخصية والابتعاد كل البعد عن الانتهازية والجشع وخيانة الأمانة والفساد وبذل كل الجهد في خدمة المجتمع والعمل على تماسكه وتجنب الفعال التي تسيء للناس أو تبدد أمنهم أو تشجع وقوع الجرائم من سلب ونهب وسطو واغتصاب وغير ذلك من الشرور والجنايات التي تتناقض بطبيعة الحال مع الحياء. أما الاستحياء من الحاكم فيبدو في صدق أهل الدربة والدراية والعلم، في النصح إليه وتبصيره بما خفي عليه من مظالم وحاجيات ومصالح ومنافع قد غفل عنها وولاته، وعدم التبجح في مخاطبته أو رميه بما ليس فيه وشتمه أو

القدح في نسبه أو الحط من شأنه وقدره أو وصفه بالجور أو الاستبداد كيدا وحقدا وخصومة وكره. وعلى النقيض من ذلك لا يجوز للرعية منافقة الحاكم ومداهنته أو تزيين المعاصي له وتسهيل الجرائم أمامه، فإن مثل ذلك يتعارض مع الحياء بمعنى قول الحق وعدم الخجل من مجابهة الظالم بظلمه. فالحياء في الجرأة وليس الاجتراء وفي المجاهرة بالحق وليس في الشتم والسباب والكذب والافتراء وهو كذلك في الدفاع عن حرية الأنا الواعية وليس في تبجح الجاهلين ولا إباحية الفوضويين والهمجيين. وبالجملة فغيبة الحياء في التربية والسياسة يؤدي حتما إلى الفساد بكل أشكاله والجور بكل دروبه والسفالة والوضاعة بكل مسالكها، وليس هناك أصدق من المرايا التي تعكس ثقافتنا التي نعيشها من تفكك أسري وغيبة البر والإحسان والاحتشام والاحترام والأدب واللياقة والصدق والصراحة والتضامن والتعاون والعفة والخجل والنخوة، فكل هذه الفضائل لا نبصرها ولا ندركها في سياستنا التربوية ولا مؤسسات الإدارة والحكم.

وحسبنا أن نعيد بعض الأسئلة التي أثارها الأمير شكيب أرسلان في كتابه لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟، والشيخ أبوالحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين!

ونقول ردًا على ما جاء في الكتابين إن عدم قدرتنا على الفصل بين الثوابت والمشخصات والمبادئ التي لا غنى عنها من جهة، وتلك العادات التي تتغير وتتبدل والآليات التي تتطور بمقتضى العلم والمعرفة وحاجيات الواقع من جهة أخرى، هو علة تخلفنا وتقدم الأغيار، وعندما توهمنا أن النقد العلمي والتجديد والتحديث اجتراء على الموروث واستحيينا تحرير أفكارنا من قيد

التقليد، خالفنا أصول المدنية التي وضعناها وارتقينا بالحفاظ عليها في الماضي. بينما أدرك الغرب أن ما يقطع بصحته العلم وتؤكده التجربة وتبرهن عليه الممارسة يجب تفعيله و إن خالف تراث الأجداد وحوته الكتب المقدسة؛ والعجب كل العجب أننا هدمنا الثوابت وكفرنا بالمشخصات اعتقادًا منا بأن ذلك الصنيع هو بوابة المدنية.

نعم خسر العالم بانحطاطنا وذلك لأننا كنا نمثل ضمير الإنسانية يوم كان الحياء هو الدستور الذي يحكم أخلاقياتنا فكنا نحسن لأنفسنا وللأغيار معًا، وعندما نجح الغرب في تبديل ذلك الدستور ونزع من معظمنا فضيلة الاستحياء، قذف بنا إلى مستنقع الهمجية والبربرية والوحشية وكان من الطبيعي أن يحصد بعض ما غرس فأضحى ذلك الوحش المهدد الأول لاستقرار العالم والمحطم الأخطر لأسوار الأمن والأمان.

أقولها واثقًا أن سياستنا في تربية أبناءنا وفي حكم وتسيير أمور أوطاننا بمعزل عن الحياء هو الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه اليوم. ألم نبتضع جيف المدنية وطحناها وخبزناها وأطعمناها لأبنائنا فمرضوا وتقيحت أخلاقهم! فماتت فيهم الكرامة والنخوة والقناعة والعفة وعشرات الفضائل التي كان الحياء يفيض بها في حياتنا الأسرية والاجتماعية. ألم يغتسل أبناءنا بأوحال أمريكا وملوثات أوروبا فباتت قيمهم مستمدة من المظاهر البراقة والشعارات الرنانة والأفكار الشاذة! طمعًا في إدراك الحرية والانعتاق من سلطة الآباء والقيم الشرقية والعادات والتقاليد التي تشكل الهوية، وغفلوا جميعًا أن الصين واليابان وكوريا والهند لم يفرطوا في آدابهم ولم تتأثر عوائدهم بثقافة الأغيار إلا بالقدر الذي يغذيها و ينميها فقوّموا الخرافة

بالعلم وحاربوا التقليد بالنقد. ألم نصلب الحياء يوم استبدلنا هويته الفاضلة واعتنقنا عوضًا عنها الرياء، والمداهنة، والسكوت على الظلم، والصبر على الاستبداد، والاستسلام لقوى الفساد، والخضوع للمطامع والرغبات؛ فأصبح فينا الراعي الخائن لرسالته، والديوث الذي لا يغار على عرضه ومعيته، والمرأة الفاجرة، والبنت المتبجحة، والشاب البذيء الذي اغتر بأوهام عالمه الافتراضي، فملأ عقله وحشر بطنه بمئات الأطعمة والأشربة المسرطنة اعتقادًا منه لأنها هرمونات القوة والنبوغ والعبقرية.

نعم ونعم حطمنا بأيدينا ميزان القيم ومعيار الفضائل فعجزنا عن التمييز بين الحياء والبذاء، والاحترام والخنوع، والطاعة والخضوع، والورع والاستسلام، وخلطنا الحلال بالحرام فاعتدينا على المحارم وحرفنا النصوص وبدلنا الفضائل. ولا أكون واعظًا عندما أقرر أن صلاحنا في إعادة الحياء ملكًا متوجًا بحكم أخلاقنا وحماية أذواقنا وموجهًا لسلوكنا.

الحياء في الفن وحرية الإبداع بين الالزام والالتزام

لعل أشهر القضايا الفلسفية - التي ناقشت ما ينبغي على الفنان والمبدع مراعاته في أعماله، إلزامًا وانتصارًا لتعاليم مقدسة أو أعراف وتقاليد اجتماعية سائدة، وكذا ما يجب الالتزام به من آداب وقيم تنبع من داخله فتصبح برهانًا على صدق إبداعه وجمال مقصده، وتبيت جزءا منه فتحمل قناعاته وحريته في التعبير - هي قضية العلاقة بين الأخلاق والفن، وقضية الفن للفن أو الفن للمجتمع، وقضية حرية الأنا المبدعة وسلطة الواقع المعيش.

وقد حرص أفلاطون في برنامجه التربوي على ربط ما يوصف بالجمال وما يُدرج في الأعمال الإبداعية بالفضائل الأخلاقية العليا والمبادئ السامية التي تعمل على ترقية الأذواق وتنقية الأنفس من الشهوات والبذاءات، تلك التي تحول بين الفنان والفلسفة الحقة و إدراك عالم المثل الشاغل بالكمالات.

وقد نحى جل متكلمي وفلاسفة المسيحية والإسلام عين المنحى فكان لهم موقف محافظ إلى حد كبير من معظم الفنون مخافة منهم على أصول عقيدتهم وآدابهم.

فيحدثنا الكتاب المقدس أن أي عمل فني - من شعر وتصوير ونحت ونقش ورسم وموسيقى وغناء - لا يمكن وصفه بالجميل إلا إذا كان مقصده لا يخدش الحياء ولا ينتمي إلى البذاءة، فالرقص إذا كان طقسًا يعبر عن فضيلة الشكر لله أو ابتهاجًا بعيد فهو محمود، أما إذا كان مثيرًا للشهوات الجسدية أو طقسًا لمعبود دون الرب فلا يمكن اعتباره فنا أو إبداعا لأنه مناقض لطبيعة الله. وتتفق المجامع الكنسية على أن الرقص الماجن من الأفعال المشينة التي لا ينبغي على المسيحي القيام بها لأن الشيطان يباركها، قد وضح ذلك امبرواز وأغسطين ويوحنا ذهبي الفم؛ بينما نزع توما الإكويني إلى أن الفنون بعامة والرقص بخاصة لا يُذم في ذاته بل يُحكم عليه بمآلاته وأثره على السلوك فإذا كان الفن يعبر عن ابتهاج النفس فلا إثم فيه. وصفوة القول أن الكتاب المقدس يُحرم تمامًا كل الفنون التي لا حياء فيها ويبيح كل عمل إبداعي يعود بالخير والنفع على الفرد والمجتمع، ومن ثم فهو ينظر إلى العري والمشاهد الجنسية وأفلام البورنو والموسيقى الماجنة والأشعار الخادشة للحياء والقصص والروايات المحرضة على العنف بكل أشكاله على أنها من البذاءات المحرمة.

ولم يختلف موقف فلاسفة الإسلام عما انتهى إليه الفكر المسيحي، إذ ذهب الجاحظ وابن سينا والغزالي وأبوحيان التوحيدي والماوردي وابن حزم والشوكاني إلى الربط بين الحسن والجميل. ولما كان الحياء من المحاسن فإن كل ما يناقضه ينضوي تحت القبيح والبذيء. ولقد اجتهد الفقهاء لتحديد موقف الشريعة الإسلامية من الفنون فالتزم بعضهم بحرفية النصوص دون النظر لمقاصدها وعللها ومآلاتها، بينما نظر البعض الأخر إلى المقدس بمنهج عقلي تأويلي فبينوا أن الأصل في الأشياء الإباحة وأن التحريم لا يقع إلا بنص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة. وعليه يجب النظر إلى الفنون بميزان النفع والضرر في ضوء القيم الرئيسة والمبادئ الراسخة التي حث عليها الدين، ومن ثم فلا تحريم للفنون في ذاتها بل الحكم يقع على الصورة والهيئة التي تبدو فيها ثم المقصد والأثر والمآل، فلا كراهة في نظم الشعر إلا ما كان منه يخدش الحياء ويفضح العورات ويمدح المحرم ويثير الشهوات ويدفع إلى المعاصي والجنايات أو يلهي عن أداء الفرائض، ولا عيب في الاستماع للإذاعة ومشاهدة التلفزيون لأن منافعها أكثر من ضررها وفي مقدور الإنسان اجتناب الاستماع أو رؤية ما يفسد ذوقه أو يخدش حياءه مما تقدمه من أعمال، ولا جناح على الغناء وعزف الموسيقى والرقص التعبيري المحتشم؛ أما إذا اقترنت هذه الفنون بما نهى الله عنه مثل شرب الخمر أو العري أو فضح المحاسن الجسدية أو المحرض على الشر فإن مثل هذه الألوان محرمة بالقطع. وما يصدق على الموسيقى والغناء يصدق على التصوير بكل أشكاله إلا ما دعا إلى الشرك أو عبودية غير الله أو ما تعمد فساد الأذواق وانحطاط الإحساس وتدني المشاعر.

وخلاصة القول أن كل فن و إبداع لا تناقض صورته الحياء، ولا يحرض

مضمونـه على المعصية، ولا يدفع الفرد والمجتمـع إلى التبذل والبذاءة واللهو والخلاعـة، ويهبط به إلى الوضاعـة والحقارة، ويزين له اللغو والسفسـطة والسخافة فهو مباح، وقد أكد هذا الرأي من الفقهاء المعاصرين عبدالمتعال الصعيدي ومحمد الغـزالي وعلي عزت بيكوفيتش ويوسـف القرضاوي (قبل عثرته).

وإذا ما انتقلنا إلى الفكر الأوروبي في العصر الحديث سـوف نجد عصبة مـن الكتـاب والفنانـين يرفعون شـعار علمانيـة الفن، منتصريـن بذلك إلى حريـة الإبداع من جهة ورفض الإلـزام في كل صوره من جهة ثانية والنظر للعمـل الفني على إنه موضوع مسـتقل بذاته وأن الجمال أقـرب إلى العلم منه إلى النزعـات والاتجاهـات الفلسـفية والاجتماعية والدينية مـن جهة ثالثة؛ وأضحى الالتزام الذي يعبر عن قناعة المبدع هو المعيار الأوحد لصدق العمل الفني. ثم جاء كانط ليؤكد استقلالية علم الجمال عن أي سلطة خارجية عن الشـكل أو المضمون؛ ومع بدايات القرن التاسـع عـشر ظهر مصطلح آخر هو الفن للفن على يد يوهان جوتة وأوسكار وايلد ثم ت. س. إليوت، وكان يرمي أيضًـا إلى التخلص من الإلزام الاجتماعـي والعقدي والأخلاقي، وبيّن أنصار هذا المصطلح أن الأدب والفن غاية في ذاتهما وليسا وسيلة للتعبير عن الأحاسـيس والمشـاعر أو آلية لإصلاح المجتمع. أما «جورجي بليخانوف» فقد رفض نظرية الفن للفن من أساسها مؤكدا أن أنصارها أرادوا عزل القيمة الجمالية عن الفن، فلم ينتجوا إلا رؤى شاذة وتصورات متطرفة لا تقوى على الوجود، وقد نحى نحو كل النقاد الاشـتراكيين والماركسيين من أمثال «سان سـيمون» و«لا مارتين» و«هوجو» الذين بينوا أن كل أدب وفن لا يأخذ في اعتباره نواحـي الكمال والنصح بالأخلاق والمثل الأعـلى والمصلحة العامة،

بالاختصار هـو أدب مريض يولد ميتا؛ فقد ربطوا بـين علم الجمال والوعي الاجتماعـي ونظروا للفـن على إنه يحمل بين طياته رسـالة نقدية و إصلاحية وثورية ترمي إلى إسـعاد المجتمع، وكيف لا؟ فالفـن هو مرآته التي تعكس همومه ومشـكلاته وتدفعه إلى تحقيـق آماله وطموحاتـه. وأضاف جيلبرت موراي أنه يجب على الفن الاضطلاع بوظيفة اجتماعية وسياسـية وأخلاقية ترمي إلى تقدمه ومنفعته. أما سـارتر فرفض الفصل بين الجمال الفني والقيمة وأكـد في الوقت نفسـه مع «ألبـير كامي» جدليـة العلاقة بـين العمل الفني والمجتمـع بكل ما فيه من حيث التأثير والتأثر. وأوضح جورج جادامير أنه من العسير فهم أي عمل فني وتحليل مقاصده وفك رموزه بمنأى عن الثقافة التي لفظتـه. وقد أكد جل هؤلاء أن انحيازهم لنظريـة الفن للمجتمع و إعلائهم لقيمـة الإلزام الخلقـي لا يعني أبـدًا اسـتحالة الفنانين والمبدعـين إلى آليات لخدمة المجتمع أو الترويج للسـائد من الأفكار والقيم والتنازل عن قناعتهم والتضحيـة بحريتهـم في الإبداع من أجل صوت الجماهـير، بل على العكس من ذلك تمامًا إذ جعلوا التزام الفنان والأديب والمبدع ضمير عصره والمدافع الأول عن صوالح أمته ومشـخصاتها وهو أيضًا الحامي للقيم الإنسانية بمنأى عـن التعصب المـلي والعرقي، أي أن القيمة الجمالية لا تخضع لسـلطة أخرى بقدر إعانتها وتضامنها مع المبادئ والقيم الخيرة التي تعمل لصالح الإنسـانية من جهة والارتقاء بالأذواق والمشاعر من جهة أخرى.

ووسـط هذا الزخم النقدي والتناظر الحاد بين أنصـار الفن للفن، والفن للمجتمـع، طرح النقـاد قضية جديـدة ترمي إلى فصل علـم الجمال عن كل مـا هو ثابـت، وذلك بحجة أن عين الفنان المبدع تتغـير من ثقافة إلى أخرى ومـن عصر إلى عصر في إدراكها للجمال و يتبع ذلك شـعور المتذوق والناقد

أيضا؛ وعليه فلا يمكنهم ربط الجميل بالمقدس والجليل، لأن مثل ذلك الربط ضد سنة الكون في التطور وتحولات الواقع وحرية المبدع ومن ثم لا يرى أنصار هذا الاتجاه وعلى رأسهم «إمبرتو إيكو» أي غضاضة في وصف القبيح بالجميل والشر بالخير تبعًا لقاعدة النسبية في تقييم الأشياء (وفي الماضي كان الرومان يتلذذون برؤية الوحوش الضارية وهي تلتهم المسيحيين الأوائل ولم ينظروا إلى هذا الفعل العنيف الوحشي على أنه جريمة أو شر أو قبح، وكذا مقاييس الوسامة والرشاقة فهي تختلف من ثقافة إلى أخرى) ومن هذا السبيل يمكن النظر إلى الأعمال الفنية المختلفة بنظرة محايدة من حيث قيمتها الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، ثم تقييمها بمقتضى الانطباعات الشخصية وأحاسيس وشعور الفنان المبدع الذي لا يُسأل في العمل الفني سوى عن صدق التزامه وعمق إبداعه. وقد ترتب على ذلك ذيوع ما نطلق عليه شعار حرية الإبداع.

فن بلا حياء وحرية بلا أخلاق

إن أوجه الاعتراض على سلطة الإلزام الخلقي تجاه الفن لم تقابل بترحاب، ليس من قبل المحافظين من رجالات الدين وعلماءه فحسب، بل من القائمين على التربية والتعليم وعلماء النفس والاجتماع والنقاد المعنيين بدراسة الأعمال الفنية أيضًا. وحجتهم في ذلك أن الحرية التي ينشدها المبدعون ليست مطلقة شأنها في ذلك شأن سائر أشكال الحريات التي تمارس على أرض الواقع، وإذا كان نقيض الحرية هو الكبت والقمع وسجن الأفكار وفرض القيود على الملكات فإن خطر الفوضى أعظم بكثير على ذوق الفرد وسلامة المجتمعات وبنية الثقافات ومشخصاتها؛ وإذا كان الالتزام الخلقي يجب

أن ينبـع من داخل الفنان المبـدع، فلما لا يكون هذا الالتزام محاط بضوابط أخلاقية نابعة من وعي الفنان ولا تتعارض في الوقت نفسه مع حريته، فطالما أكد «هايدجر» على أن حرية الفن لا تسـتقيم بمعزل عن الوعي. وقد ذهب التربويون وفلاسـفة الأخـلاق المعاصرون إلى إنه يجـب التمييز بين الفنون الراقيـة التي تسـتحق الوصف بالجـمال من جهـة، والصنعة الفنيـة التي لا تعبـأ بأثر ما تنتجه من أعمال على الذوق العام والأعراف السـائدة من جهة أخـرى، مبينين أن أفلام العـري(*) والقصص والمسرحيـات التي تجترئ على

(*) تعد مجلة «بلاي بوي» الأمريكية التي ظهرت عام 1953 أشهر المجلات الإباحية وقد صارت على نهجها مجلة الشبكة اللبنانية التي صدرت عام 1965 وأخيرا مجلة جسد التي صدرت عام 2008. وإذا ما انتقلنا إلى الروايات الإباحية فسوف نجد جذورا لها في الحضارات الشرقية القديمة ولاسيما في الثقافة الهندية حيث كتاب الكاما سوترام للفيلسوف الهندي فاتسيايانا والأساطير والملاحم اليونانية وعلى رأسها الإليازة، أما في العصر الحديث فقد ظلت الأعمال الروائية خالية من القصص الجنسي الصريح في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وفي العقد الأول من القرن التاسع عشر بدأت المشاهد الجنسية الصريحة تشغل حيزا في الأدب الروائي الغربي على استحياء أما في الرواية العربية فلم يكن للإباحية أي أثر في الأدب الروائي إلا مع مطلع القرن العشرين ولم يكن سوى إيماءات وإشارات موظفة للخدمة الدرامية. أما باقورة الأفلام الإباحية الغربية كانت عام 1924 بأمريكا وكانت تتداول في الخفاء وقد ازدهرت عام 1960 في الثقافة الغربية غير أنها كانت مجرمة ثم ذاعت في شتى الثقافات عام 1972 وفي مطلع الثمانينات بدأ توزيع أشرطة الفيديو الإباحية على نطاق واسع واكتسبت وضعًا قانونيًا لا يمكن معه ملاحقتها إذا التزمت بشروط معينة، وتتصدر الولايات المتحدة الأمريكية قائمة منتجي الأفلام الإباحية بنسبة 89% ثم ألمانيا. وقد بلغ عدد الأفلام الإباحية في مطلع القرن الحالي 11000 فيلم سنويا. أما الأفلام العربية الإباحية التي تحوي مشاهد جنسية فقد ظهرت عام 1927 بفيلم قبلة في الصحراء ثم فيلم مأساة الحياة عام 1929 وقد صُودر ومُنع ثم فيلم أولاد الذوات عام 1932 وفيلم=

الأديان ومشخصات الهوية القومية وتهزأ من الأبطال والقادة والشخصيات التي احتلت في الوجدان الجمعي مكانًا راقيًا وتستخدم ألفاظ القدح والشتم في تعليقاتها النقدية ورسوماتها الكاريكاتيرية، لا يمكن وصفها بأنها فنون جميلة، فالبذاءة والقبح والتدني وغيرها من الرذائل التي يتعمد بعض الاحترافيين إبرازها في أشكال فنية براقة ومضامين تناقش قضايا ساخنة بمنحى شاذ، لا يمكن وصفها بأنها إبداعات فنية راقية؛ فما القيمة التي يحملها الرقص الذي يتعمد القائمون به في إبراز مفاتن المرأة ليثير الشهوات والغرائز، وما فائدة الخوض في تفاصيل ما يحدث على المخادع في الأغاني والأعمال الروائية، وما الفائدة من تعظيم مكانة البلطجية والأشرار والمفسدين في

= أنشودة الفؤاد ورغم ذلك كله كانت معظم هذه المشاهد الإباحية موظفة لخدمة الفضائل وذم الرذائل المتمثلة في الدعارة أو العشق غير العفيف. أما المواقع الإباحية على شبكة الانترنت فقد ظهرت في العقد الأخير من القرن العشرين وازدهرت في شتى أنحاء العالم في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ولا يوجد لهذه المواقع على كثرتها ضابط أو جهة رقابية تحجبها إلا جهود كل دولة على حدى ومن أشهر الدول التي قامت بحجب المواقع الإباحية الصين وكوريا الشمالية وإيران والسعودية. وتشير التقارير المعاصرة أن أكثر مشاهدي الأفلام الإباحية على شبكة الإنترنت من العرب، وتحتل الإمارات ومصر والكويت وقطر والبحرين والمغرب والسعودية المراكز المتقدمة في عدد المشاهدين. أما الأفلام الإباحية في الثقافة العربية فقد ظهرت عام 1997 على يد بعض السياح الروس ثم شرع العديد من الشباب في مصر في تصوير وإنتاج المشاهد الجنسية مستعينين بالفتيات الريفيات والممثلات الأجنبيات المحترفات وذلك في أماكن سرية نظرًا لأن مثل هذه الصناعة مجرمة. والجدير بالإشارة أن هناك أفلام مترجمة وأخرى ناطقة بالعربية تختص بإنتاج الأفلام الإباحية للمحجبات والمنتقبات والمحارم والراهبات والشواذ من الجنسين قد راجت على نطاق واسع في الفترة الأخيرة.

الأعمال السـنيمائية والمسرحيـة والتمثيلية بالإضافة إلى تيئيـس المتلقي من معالجة المشـكلة أو إصلاح ما فسـد أو تغلب الشر على الخير، بحجة تجسيد الواقـع والتعبير عنه والتحريض على الثورة لتغييره متجاهلين الأثر السـلبي الذي يقع على النشء والإحباط الذي يثير المشاهد وتفشي ظاهرة العنف بين المقلدين من الشباب.

وقد حظر أفلاطون، وجان جاك روسو، والناقد الفرنسي فردناند برونتير (1849 - 1906م) من تجاهل أثر الأعمال الفنية على الفرد والمجتمع والانتصار إلى التـذوق الفـردي والرؤى الخاصـة، الأمر الذي دفعهـم إلى تقييم الأعمال الأدبية والقيـم التي تحملها المنتجات الفنية والصـور الإبداعية من زاويتين، أولهما مفهوم الجميل باعتبـاره جنس تتولد عنه العديد من الأنواع التي تحمل خصائصـه الرئيسـة، وثانيهـما الأثر الذي تخلفـه تلك الأعمال عـلى المتلقي. ويضيف الأخير أن المحاسن لا تتضح أو تفسر إلا بأضدادها وعليه يمكن أن تنطـوي الفنون ذاتها على ما يمكن وصفه بالبـذاءة، غير أن عين الفنان المبدع تلقـي الضوء عـلى هذه البذاءات أو إن شـئت تلك الملوثـات لفضح حقيقتها وليس لهدف قيم أخلاقية بعينها وعلى ذلك فينبغي علينا الفصل في ميدان النقد بـين المبادئ الأخلاقية وانطباع علـماء الأخلاق والتربية تجاه الأعمال الفنية. ويضيـف معظم الواقعيين أن الفنون ليس في إمكانها تجاهل القبح أو الشرور لأنهـا موجودة في الواقع ومن ثـم يجب الحديث عنها، فالأصـوب القول بأنه لا ينبغـي على الفنون التحريـض على تلك الملوثات أو هاتيـك الرذائل وذلك بعـد التأكد من أثرها السـلبي على الفـرد والمجتمع، مثل السرقـة أو القتل أو الخيانـات الزوجية أو الكـذب والاحتيال؛ فإذا كان المتلقي يسـتمتع بجمال جسـد المرأة والقبلـة التي تعبر عن الـدفء العاطفي، فلا ينبغـي على الفنان

المبدع الانصراف إلى تصوير العري والتمادي في فضح ما سوف يحدث بعد القُبلة ولاسيما في أفلام البورنو والإسقاطات التي تحملها، وذلك لأنه ينتقل من التعبير عن القيمة إلى الوصف المحسوس الذي لا غرض منه سوى الإثارة. غير أن بعض النقاد ينزع إلى أن الفن ليس تابعًا أو خادمًا للأخلاق أو مسئولا عن تربية المجتمع أو ترسيخ المعتقدات الدينية، فالفنان ليس مسئولا إذا ما أحب أو تأثر المتلقي بصورة الشيطان أو أعجبت الفتيات بسلوك الغانيات أو افتتن الشباب بصور المغامرين وأبطال الروايات ومعاركهم الدامية. فإن المحاذير التي ينادي بها الأخلاقيون تريد أن تحول الفنان إلى واعظ من فوق منبر الفضيلة. ويذهب التطبيقيون إلى أن الالتزام الخلقي الذي يدين به المبدع لا يكفي ليصبح هو المعيار الأوحد للحكم على تلك الأعمال التي ينتجها ثم يعرضها ويسوقها ويبيعها للجمهور، فهناك شروط للصلاحية يجب على المبدع الانصياع لها لكي يسمح له المجتمع لنشرها أو إذاعاتها حتى لا يفسد المجتمع من جراء تعاطيه لملوثات الذوق. فمن غير المعقول السماح لانتشار الأعمال التي تروج للأفكار الهدامة مثل (العنصرية والأنانية والاستبداد والإباحية والصراع والتشاؤم والتواكل والاغتراب والانتحار وازدراء الأديان وجحد المشخصات). ولكل مجتمع الحق في معايير للصلاحية حفاظًا على أمان المجتمع والذوق العام معًا. فإذا كان «بقراط» قد وضع قدرة إبعاد الضرر ومحاربة المرض من أوائل المهام والمؤهلات التي لا غنى عنها لمن يرغب ممارسة مهنة الطب وعلاج المرض، فإننا لا ينبغي علينا استنكار الدعوات التي تنادي بمنع المبدعين من إنتاج معاول لهدم قيم المجتمع أو وضع السموم في الخبز وخلط الهروين بلبن الأطفال باسم الحرية. فإذا كنا نعتبر التعليم مهنة لها آداب وصلاحيات وأخلاقيات، فكيف ننظر إلى الفن بعين مغايرة،

مع أن الأعمال الفنية لها نفس الأثر - أو يزيد - عن تلك الدروس والمهارات التي تقدم في دور العلم.

وعندي أن المشكلة سوف تظل قائمة بين المعايير الإلزامية التي يفرضها المجتمع على الفنانين والمبدعين من جهة، وقناعات المبدع التي يلتزم بها في أعماله التي تعبر عن حريته واستقلاليته من جهة أخرى. وأعتقد أن الحل يكمن في أمرين: أولهما التفرقة بين المبدع الحقيقي والمدعي الحرفي أو المقلد، فالحرية ليست هبة أو منحة تُمنح وتُمنع بل هي حق لا ينادي به إلا الوعاة الأيقاظ، وثانيهما تعدد مستويات الخطاب بالقدر الذي يجعل الأفكار الجانحة الناقدة للمألوف، والرؤى الثورية الداعية للتغيير، والآراء الإصلاحية الساعية للتقويم، أقرب إلى اللغة الرمزية ليستقبلها المثقف الواعي القادر على التمييز بين الدلالة والرمز والمعنى والمقصد. وبذلك تتحقق الغاية من الخطاب الإبداعي المتجسد في العمل الفني، ويتجنب المبدعون بذلك شبهة الإجتراء ونقد الثوابت والمشخصات التي تدين بها الثقافة السائدة والعقل الجمعي.

أما الأعمال الفاسدة التي لا يصدق على مضمونها أو شكلها صفة الجمال أو الفن، فينبغي القضاء عليها شأن الملوثات والنفايات والأجنة المشوهة والجراثيم الضارة والأوبئة المهلكة.

وأخيرا لم يتبقى لنا سوى مناقشة علة وجود أعمال فنية بلا حياء وحرية بلا أخلاق؟ أعتقد إن علة ظهور مثل ذلك الفصام يرجع في المقام الأول إلى عدم وجود النظام وسيادة التناقضات والاضرابات في شتى نواحي الحياة، أي في بنية الثقافة، فإذا كان الانسجام والانتظام هما اللذان يميزان الفن عن

غـيره فإنهما أيضا علة وجود الجميل وفي غيابهما يتفشى القبح ويختفي الحياء. وفي ثقافتنـا العربية المعاصرة خير مثال على ذلـك؛ فقد عانى المجتمع العربي من ثنائيات حالت بينه وبين الشـعور بالانسـجام والانتظـام (الامكانيات والطموحات، الواقع والوهم) وذلك في ظل تزايد الفروق الطبقية وانسحاق الطبقة الوسـطى وغيبـة المنابر التثقيفيـة وتصارع المتطرفـين وغيبة الوعي والشـعور الجمعـي وفسـاد الأذواق وانحطـاط القيـم؛ ذلـك بالإضافة إلى المخططـات الغربية التي ما زالت تسـعى إلى إفسـاد المجتمع العربي وثقافته بالقدر الذي لا يمكنها من النهوض ثانية.

ولا أشـك في إن هذا الرأي لا يـروق للكثيرين الذين يرفضون نظرية المؤامرة ويتهكمون على الدعوة لإحياء النفيس من مشخصاتنا وعوائدنا، ولا يسعني إلا أن أسـوق إليهم هذه الحقائق؛ أن الكتابات الشاذة والرؤى الجانحـة والأعمال الفنية الإباحية هي التـي تلقى رواجًا أو تقابل بالمدح والثنـاء مـن المحافـل الغربيـة وذلك لتشـجيع هـذا الدرب مـن الإبداع للاسـتمرار والنماء، أضـف إلى ذلك أن المواقع الإباحيـة قد تعمدت منذ نشـأتها على تخصيص جانب كبير من خطاباتها إلى المجتمعات التي تعاني مـن ضعف القيم وتشـتت الوعي وعلى رأسـها المجتمعـات العربية، فقد خصصت أفلامًا جنسـية يقوم ببطولتها المحجبات والمنتقبات ومرتديات زي الرهبنـة بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الأفلام ترغب في زنا المحارم ومجموعـة ثالثة تنشر فيها فضائح بعض المشـاهير؛ والغريب في ذلك كله أن هناك مئات الأفلام قد صُورت وأُنتجت داخل البلدان العربية وبأبطال عرب. ناهيك عن الأثر الذي تخلفه تلك الأفلام وما فيها من خداع و إبهار ولذة حسـية على سـلوك جل أفراد المجتمع، الأمر الذي ظهر بوضوح في

الكثير من الظواهر التي لم تكن موجودة من قبل على نطاق واسع مثل التحرش وزنا المحارم والخلافات الجنسية بين الأزواج وتعاطي المخدرات والإقبال على المنشطات الجنسية بالإضافة إلى تزايد أعداد الشواذ من الجنسين.

وأعتقد أنني لن أكون واعظًا في دعوتي لإحياء فضيلة الحياء، ففيها الإصلاح المنشود ولا يستقيم بدونها الدعاء والرجاء ولا العقوبات والمصادرة لرفع ما نعانيه من بلاء.